الفصل الثالث عشر

توفيق الطويل

ومثاليته الأخلاقية المعدلة

الفصل الثالث عشر

توفيق الطويل
ومثاليته الأخلاقية المعدلة

أولاً: مكانته الفكرية:

يُعد د. توفيق الطويل (1909 - 1991م) رائد الفكر الفلسفي الأخلاقي في مصر والعالم العربي؛ فهو أول من كتب في فلسفة الأخلاق وأول من طور فيها مذهبًا خاصًا به أطلق عليه «المثالية المُعدلة»، كما كان من أكثر أساتذة الفلسفة تأثيرًا في معاصريه سواء بكتاباته التي تميزت بالغزارة والعمق، أو بسلوكه الذي تفرد به والذي لم يتغير لدرجة جعلت صديقه إبراهيم مدكور يقول في كلمة استقباله في مجمع اللغة العربية «لقد عرفته منذ أربعين سنة أو يزيد وأشهدكم أن توفيق الطويل الذي عرفته في ذلك التاريخ هو نفسه نوفيق الطويل الذي نستقبله اليوم: أدب جم تواضع تام، تفكير واضح، روية، وخلق سمح، ألف الصمت، لا يتكلم إلا بحساب وقدر».

ثانياً: صورة عامة لحياته ونشاطه الفكري

- ولد د. توفيق الطويل بحي بولاق بالقاهرة عام 1909م.
- تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة - قسم الفلسفة في يونيو 1934م. وكان أثناء دراسته الجامعية مثالاً للطالب النشط حيث أنشأ جمعية للبحث والمناظرة وأشرف عليها واستضاف من خلالها كبار المفكرين والأدباء الذين عقدوا حوارات طويلة مع طلاب الجامعة. كما اشترك مع زملائه في إقامة مشروع عيد الوطن الاقتصادي الذي كان هدفه تدعيم الدعوة إلى اقتصاد مصري قوي وصناعة مصرية مستقلة.

- وقد بدأ بعد تخرجه في الكتابة إلى المجلات الفكرية والثقافية وأثار في مقالاته العديد من القضايا الفكرية الهامة مثل قضية السرقات الأدبية.
- عين معيدًا بنفس الكلية التي تخرج منها عام 1939م، ولكنه عين مدرسًا بآداب الإسكندرية عام 1942م ثم انتقل مرة أخرى إلى آداب القاهرة ليعين أستاذًا مساعدًا عام 1949م ثم شغل كرسي الأستاذية عام 1962م. وتولى منصب وكيل كلية الآداب فترة من الوقت عام 1964م. كان أبرز ما ميزه في كل ذلك دقته الشديدة في عمله لدرجة أن طلابه كانوا يضبطون ساعتهم على موعد دخوله قاعة المحاضرات أو أي مناسبة يشارك فيها سواء كانت مناقشة رسالة علمية أو حتى رحلة ترفيهية.
- انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية وتولى رئاسة لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجمع. كما عين عضوًا بالمجالس القومية المتخصصة بشعبة الثقافة، وعضوًا بلجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة.
- عمل بالعديد من الجامعات العربية كمعار وكأستاذ زائر مثل الجامعة الليبية وجامعة قطر وجامعة الكويت وجامعة بغداد. وقد شارك في عشرات المؤتمرات والندوات العلمية في مصر والعالمين العربي والغربي.
- وقد توفى الدكتور توفيق الطويل في الثالث عشر من فبراير عام 1991م، بعد حياة علمية حافلة بالعطاء الذي لا نظير له ولا يزال في نظر كل من عرفه ودرس على يديه مثال الأستاذ ومثال الأخلاق العلمية الرفيعة.

لم يكن توفق الطويل أستاذًا عاديًا بل كان كفكرة أخلاقية تسير على الأرض؛ فلقد أعطى حياته الطويلة للعلم راهبًا في محرابه، وأعطى معظم وقته لتلاميذه فلم يبخل عليهم بعلمه الواسع بل كان لهم الأب الحنون والمعلم الصبور الذي فتح عقله بسماحة لكل الآراء ولكل الاتجاهات دون أن توغر صدره الأحقاد أو المنازعات التي كانت كثيرًا ما تنشب بين أسرة الفلاسفة في مصر.

لقد كان أبًا للجميع من تلاميذه رغم اختلافه مع الكثيرين منهم، وكان صديقًا لكل

معاصريه ورفاق جيله، ودودًا مع الجميع، متسامحًا دائم الابتسام لم أراه يومًا عابثًا في وجه أحد أيًا كانت مكانته أو سنه أو جنسه، لم أجده يومًا حاقدًا على أحد أو يتحدث بسوء عن أحد.

إنه كان كل تلك الصفات وأكثر؛ فلقد كانت أخلاقه حياته وحياته أخلاقه.

أما حياته العلمية فكانت بحق مثالاً يحتذى؛ إذ لا ينسى أحد من تلاميذه طوال عشرات السنين ذلك المعلم العظيم الذي كنا نضبط ساعاتنا على دخوله قاعة المحاضرات بمدرج 78 الشهير بكلية الآداب- جامعة القاهرة في تمام الساعة الحادية عشرة من صباح كل خميس، لقد كان ذلك هو موعد محاضرته القيمة في " فلسفة الأخلاق ".

ولا ينسى أحدنا تلك الطلعة المهيبة وذلك الصوت العميق المؤثر الذي كان يجلجل في ذلك المدرج الكبير بلغة عربية رصينة أهلته لأن يحتل مقعده بين علماء اللغة في مجمع الخالدين - مجمع اللغة العربية.

ثالثًا: مؤلفاته

لقد استحوذت الأخلاق على حياته العلمية والعملية معًا؛ فها هو منذ فجر حياته العلمية يهتم بهذا الفرع العلمي الهام من فروع الفلسفة فيضع فيها من المؤلفات ما أصبح منذ عشرات السنين المرجع الأول لكل دارسي هذا النوع والمهتمين به في أنحاء العالم العربي، فليس من بين هؤلاء من لم يقرأ و يتتلمذ على كتابه الشهير «فلسفة الأخلاق - نشأتها وتطورها»، فهذا الكتاب بالإضافة إلى كتابه «أسس الفلسفة» أصبحا من المعالم الرئيسية في الدرس الفلسفي العربي منذ سنوات طويلة.

ولم يكن توفيق الطويل مجرد ناقل لكتابات الغربيين في هذا الميدان، بل كان صاحب موقف فكري في كل ما يكتب وخاصة في ميداني «الفكر الأخلاقي» و«الفكر الإسلامي». وقد زاوج بين هذين الميدانين في ابداعاته؛ فمعظم مؤلفاته كانت في فلسفة الأخلاق من ناحية، وفي الفكر الإسلامي من ناحية أخرى. و يكفي أن نذكر هنا كتاباته الأخلاقية إلى جانب كتابه الأشهر الذي أشرنا إليه، كتابه عن «مذهب المنفعة العامة» وكتابه عن «جون استيوارت مل» رائد هذا الاتجاه النفعي، فضلاً عن أبحاثه الرائدة في هذا الميدان مثل «العقليون

والتجريبيون في فلسفة الأخلاق» الذي نشره عام 1952م بمجلة كلية الآداب، و«القيم العليا في فلسفة الأخلاق» الذي نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية وكذلك بحثه عن «فلسفة الأخلاق الصوفية عند محي الدين بن عربي» الذي نشر ضمن الكتاب التذكاري عن المتصوف الكبير.

ويكفي أن نذكر هنا كتاباته في الفكر الإسلامي - وكانت جميعها ذات أثر قوي في قرائها وكم خاض صاحبها معارك فكرية للدفاع عن وجهة نظره فيها - «التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام»، و«الشعراني إمام التصوف في عصره»، و«التصوف في مصر إبان العصر العثماني»، و«قصة النزاع بين الدين والفلسفة»، و«قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام»، و«الأحلام في الفكر الإسلامي»، و«الفكر الديني الإسلامي في مائة عام الأخيرة»، و«العرب والعالم في عصر الإسلام الذهبي»، و«في تراثنا العربي الإسلامي»، و«بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية»، هذا بالإضافة إلى عشرات البحوث والمقالات في العديد من المجلات العربية عن الفكر الإسلامي والعالم العربي وتاريخهما.

رابعا: فلسفته الأخلاقية: المثالية المعدلة:

لقد كان د. توفيق الطويل صاحب موقف فكري واضح ومتميز في كتاباته تلك، وتميز هذا الموقف دائمًا بالموضوعية والاعتدال. وسأقتصر في هذه العجالة على بيان جانب واحد من جوانب هذا الموقف الفكري العام لمفكرنا وهو موقفه في الفكر الأخلاقي، ذلك الموقف الذي كونه عبر رحلة طويلة تشرب فيها كل نتاج فلاسفة الأخلاق من مثاليين وطبيعيين، روحيين وماديين. وقد انتهى من هذه الرحلة إلى بلورة ما أسماه بـ « المثالية المعدلة « لتصبح علمًا على مذهبه الأخلاقي.

فلقد رفض منذ البداية اتجاه الطبيعيين والواقعيين الأخلاقي نظرًا لأنهم رغم تنوع مذاهبهم (فمنهم التطوريون والنفعيون والوضعيون والماركسيون... إلخ) قد نظروا إلى الإنسان على أنه ذلك «الكائن الحاس العاطل من القوى الروحية والعقلية»، ومن ثم فقد جاء هدف الأخلاقية عندهم هو «اشباع الأنانية وتوكيد الذات ولو جاء ذلك على حساب القيم الروحية العليا».

وفي مقابل ذلك الموقف الرافض لاتجاه هؤلاء الطبيعيين الذين بنوا الأخلاقية على اللذة أو المنفعة أو هما معًا، نجد موقفه المؤيد بشكل عام للاتجاه المثالي الذي يرد أصحابه - بشكل عام - الأخلاقية «إلى الحدس أو العقل دون الوجدان» ومن ثم فهم يعتبرون «أن الخيرية صفة تقوم في طبيعة الفعل الخير ولا تتوقف على شعور الفرد أو الجماعة بالاستحسان» كما أنهم يعتبرون «أن الضمير قوة فطرية كامنة في طبائع البشر تدرك الخير وتميز بينه وبين الشر حدسيًا تلقائيًا دون اعتبار لنتائج الأفعال وأثرها» ومن ثم فهم يؤكدون «أن الأخلاقية تحمل جزاءها في باطنها وتتضمن في ذاتها مبرراتها». (انظر كتاب د. توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، الطبعة الرابعة، ص485 وما بعدها).

ورغم هذا الموقف المؤيد للمثالية بشكل عام، إلا أن مفكرنا ينتقد هؤلاء المثاليين المتزمتين الذين «نفروا من الجسم ومطالبه وأثاروا بينه وبين العقل حربًا شعواء تهدف إلى إماتة الحس واستئصال شهوته ورغباته». كما ينتقد مثالية كانط وأتباعه لأنهم «منعوا الاستثناء من القاعدة الخلقية مهما كانت مبرراته مع أن القانون الخلقي قد وضع من أجل الإنسان ولس الإنسان هو الذي خلق من أجل القانون».

وفي ضوء هذه الانتقادات التي وجهها مفكرنا لأراء الطبيعيين الواقعيين من جهة، ولآراء المتزميتن من المثاليين من جهة أخرى تبلور مذهبه الذي أسماه كما أسلفنا بالمثالية المُعدلة.

وهذه المثالية المُعدلة تقوم كما يقول صاحبها « في تحقيق الذات بكل قواها الحيوية. وهذا التحقيق يتطلب الإلمام بحقيقة الطبيعة البشرية ومعرفة إمكاناتها، ووضع مثل إنساني رفيع يكفل وحدتها، ويضمن تكاملها، وفي ظل ذلك يشبع الإنسان قواه جميعها - الحسي منها والورحي - بهداية العقل وارشاده وتأخي الأنانية والغيرية فيزول العداء التقليدي بين توكيد الذات ونكرانها إذ يخلص الفرد لواجبه نحو نفسه في الوقت الذي يدين الولاء للمجموع الذي ينتمي إليه وبذلك يتصل كمال الفرد بكمال المجموع وتقترن السعادة بالفضيلة دون أن تكون إحداهما ضحية الأخرى كما كان الحال في مذهب المتزمتين من العقليين من ناحية، والمتطرفين الحسيين من ناحية أخرى».

بهذه العبارة الجامعة السلسة لخص د. توفق مثاليته الأخلاقية التي تقوم على فكرة هامة

جدًا استعارها من علم النفس الحديث هي فكرة «تحقيق الذات»، فالأخلاقية لديه ينبغي أن تقوم على التحقيق الكامل لذات الفرد دون أن يكون في ذلك أي إضرار بمصحلة المجموع.

إن المثالية المُعدلة التي تقوم على «تحقيق الذات» إنما يراد منها التعبير عن جميع قوى الفرد الحيوية من ميول ودوافع فطرية وعواطف ورغبات تعبيرًا كاملاً ينتفي معه قيام كبت أو عقد أو صراع باطني. وتعبير هذه القوى إنما يهدف في الأساس إلى تحقيق غاية مشتركة تحقق الخير للفرد وللمجتمع معًا، وتتمثل هذه الغاية فيما يسميه صاحب المثالية المُعدلة بالمثل الأعلى الذي يرد ميولنا الفطرية عن غاياتها الأصلية ويعيد توجيهها إلى هدف مألوف يساير آداب المجتمع ويتمشى مع تقاليده ومواضعاته.

إن الإنسان في هذه المثالية إنما يبدو فردًا في أسرة ومواطنًا في أمة وعضوًا في مجتمع إنساني؛ فإذا اقتضته القيم الروحية كبح جماح بعض شهواته وميوله وقواه، تخلص من التوترات والناجمة عن هذا الكبح بالإعلاء (إعلاء الطاقة الحبيسة) الذي يريحه من متاعبه ويحقق الخير للمجتمع. وبهذا يرتبط كمال الفرد بكمال المجموع الذي ينتمي إليه مع احتفاظه بفرديته واستقلاله بشخصيته.

إن أبرز ما في هذه المثالية المُعدلة التي دعى إليها مفكرنا هو أنها تقيم الأخلاقية على تحقيق الذات القائم على الاعتدال والتوازن بين رغبات الفرد والتزاماته نحو المجموع، بين عقل الفرد وعواطفه، بين مطالب روحه ومطالب جسده.

وهذه المثالية على هذا النحو إنما هي مثالية معتدلة تجعل من التحلي بالأخلاق والفضيلة شيئًا ميسور المنال للجميع، فضلاً عن أنها تتوافق إلى حد كبير مع التوسط والاعتدال الذي يشكل جوهر الأخلاقية في ديننا الإسلامي الحنيف.

ومن ثم فإن هذه المثالية التي دعى إليها مفكرنا إنما هي الأولى بالاستحواذ على اهتمامنا من بين المذاهب الأخلاقية المختلفة، وهي من جانب آخر الأجدر بالإتباع.

رحم الله د. توفيق الطويل الذي لم يكن مجرد داعية لهذه المثالية المُعدلة على المستوى النظري فقط. وإنما كان يعيشها عملاً وسلوكًا، وكان بذلك من قلة قليلة من المفكرين - كان على رأسهم سقراط قديمًا وكانط حديثًا - عاشوا أفكارهم، فخلدهم تاريخ الفكر الأخلاقي.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ملف خدمة د. توفيق الطويل، بالجامعة المصرية، أرشيف كلية الآداب - جامعة القاهرة.

د. توفيق الطويل:

- فلسفة الأخلاق: نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة.
- أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، الطبعة السادسة، القاهرة 1976م.
- قصة الصراع بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة 1979م.
- د. توفيق الطويل مفكرًا عربيًا ورائدًا للفلسفة الخلقية: بحوث عنه ودراسات مهداه بإشراف وتصدير د. عاطف العراقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1995م.